الشيخ عارف الزين

فقيد الأدب والوطنية والجهاد

بقلم : عبد اللطيف اليونس

كان ذلك سنة ١٩٣٨ حينما قررت لجنة من كرام القوم ، اقامة يوبيل ذهبي للعلامة الجليل الشيخ سليمان الاحمد .

وكانت أول مرة أزور فيها صيداء . وقد ذهبت اليها للاشراف على طباعة كتاب عن حياة الشيخ سليمان ، في مطبعة « العرفان » . وانتزعني الشيخ عارف الزين يومئذ من الفندق ، وابى الا أن يضيفني في منزله ، طيلة تلك المدة ـ التي أربت على العشرين يوما .

وكانت مناسبة طيبة . قدر لي خلالها أن اعرفه عن كثب معرفة تامة . زادتني وثوقا بصلاحه وطهره ، وفضله ونبله . بصدقه وايمانه ، واستقامته واخلاصه . بسمو نفسه ، وكرم روحه . بسخاء يده ، وتسامح قلبه .

ولن تعرف المرء .. الا اذا عرفته في حالتي : الرضى والغضب ، الامل واليأس ، اقبال الحياة وادبارها، اشراقها وعبوسها .

واذا لم تعش مع المرء وتواكبه ، وتسع معه وتعامله ، فلن تعرف شيئا عن واقعه وجوهره .. بل تظل على هامش حقيقته ، وشاطىء روحه . ولن تستطيع التغلغل الى أعماق طباعه وخلائقه .. الا اذا مسست بتيار حاجتك ، وطول معاشرتك ، دخيلة نفسه ، والعصي من سره وخبره .. ورحت معه وجئت ، وأكلت وسمرت ، وبحثت وحاججت . وحينئذ تعرف من هو .. واين مكانك منه ، ومكانه منك .

ولقد أخذت ـ وأنا حينئذ في مطلع ربيع الحياة ـ بنفسه الخيرة ، وروحه النيرة . بضميره النقي ، وخلقه الابي . بتلك الصراحة البريئة ـ لا تجامل صديقا ولا تراعي قريبا .

وكنت أنام على صدى صوته الهادىء ـ وهو يتلو الاوراد بخشوع عجيب . وأفيق على صدى صوته الهادر ـ وهو يرتل القرآن بنغم مهيب .

لقد كان يتجه بكليته الى الله ـ حينما كان يتجه الى الصلاة . ينم على ذلك : عينان مسبلتان وتقى واضح، وخشوع ما يزال أثره في نفسي ـ الى الآن .

وبعد أن يفرغ من واجباته الروحية ـ والشمس ما تزال في خدرها ـ يهرع الى حديقة منزله ، يشذب شجيراتها ويفقد أورادها . ويخلد بعد ذلك الى عمله التوجيهي والادبي منصرفا اليه بكل ما في نفسه من قوة وعزم ، وصبر واحتمال .

نفس صافية ، وقلب كبير . رجولة كاملة ، وتهذيب رفيع . كبرياء متواضعة ، وتواضع مترفع . وطنية صادقة ، وجهاد صامت . انسانية سمحة كريمة ـ لا تعرف الحقد ، ولا يعرفها الحقد . أبعد شيء عنه الممالأة ، وأقرب شيء اليه الصراحة . أحب شيء اليه : لقيا صديق ، واغاثة ملهوف ، اطعام جائع ، ومساعدة مسكين . فكأنه أحد الذين عناهم الشاعر القروي :

الباسطين الى الفقير أكفهم

والذائدين عن الضعيف العاني

القيت هذه الكلمة في الحفلة التأبينية الكبرى التي أقيمت للعلامة المجاهد المرحوم الشيخ عارف الزين في قصر الاونيسكو ببيروت .

والمصلحين الساكبين عقولهم
وقلوبهم في خدمة الانسان

تلك كانت بعض خلائقه ومزاياه ، ومبادئه وسجاياه .

لقد كان انسانا دوما أكثر من يدعي « الانسانية » وهي منه براء . وكلمة « انسان » هي خير ما يطري به امرؤ ، ويثنى عليه . وما أروع قول عمر ابي ريشة :

لست تسطيع أن تكون آلها
فاذا استطعت فلتكن « انسانا »

ومن مزايا الانسانية انها لا تخفى على أحد ـ فهي تطل من عيني « الانسان » ومن قلبه ، وقلمه ، ويده . ولعل اللسان هو آخر ما تطل فيه . وربما كان أبو الطيب يشير الى ذلك بقوله :

لا خيل عندك تهديها ولا مال
فليسعف النطق ـ ان لم تسعف الحال

ولقد اجتمعت به بعد ذلك كثيرا .. وكنت كلما لقيته مرة شعرت ان محبتي له قد نمت ، واكباري قد تضاعف ، وتقديري قد زاد . كنت أجد في نفسه دنيا من الفضائل والمكرمات ، والخير والمروءة .

وكثيرا ما عاتبته على صراحته ـ يلقيها غير هياب ، ويطلقها غير وجل . لا يهمه أين تقع ، ولا كيف تقع . فهي انما صدرت عن قلبه ، ونبعت من ضميره وليس وراءها الا حسن نية ، وكريم قصد ، ومحاولة اصلاح .

لقد كان يقول لي دائما : ان الصدق ـ هو الصدق ولا تفسير آخر له . وان المجتمع الذي لا يقوم على أساس من الصراحة والتجانس ، هو مجتمع فاسد منحل .

لقد كان يؤمن بالمجتمع الفاضل ايمانا عميقا . ويرى أن المجتمع لا يكون فاضلا كاملا متماسكا متساندا .. الا اذا سادته الرحمة والانسانية ، والصراحة والود

وكم كنت أجد لذة في التحدث اليه . وكان يجد ـ أحيانا ـ بعض الصعوبة بايجاد توافق وانسجام بين تفكيره الواسع المصقول ، وتعبيره المرهق المثقل . فقد كانت « الكلمة » ـ على قدرتها ـ أعجز من أن تحيط بالمعنى الدقيق العميق ، وفكرته القوية الغنية . وكان سيل الخواطر يطغي على لسانه فينآد تحتها ـ لا عن عي ، ولا عن عياء .. وانما العبقرية : دماغ مفكر ، أو لسان معبر .

كان واسع الاطلاع ، قوي الذاكرة . يضرب المثل بقوة حافظته ، ورهافة ذاكرته . لا يكتب كلمة الا ويملؤها بالشواهد الكثيرة : قرآنا ، وحديثا ، وشعرا ، وآراء لعباقرة موهوبين .

ولم يكن كاتبا يلهي القاريء بالتنميق والتزويق ، والتوشية ، وزخرف الكلام ، بل كان كاتبا رصينا . تضيء أفكاره « الحرف » فيسطع بها ، وتحشد المعاني في كلماته ـ فتزهو بها .

كان قلمه قلم عالم يتخذ الاسلوب وسيلة للتعبير عن آرائه وأفكاره فيجيء اسلوبه خلوا من الاصباغ والالوان . لا يأبه في كتابته الا بالصراحة والصدق ، والواقعية والجدية ، والامانة الحقة للادب والتاريخ .

كان صديق القاريء ـ لا يمل رفقته ، ولا يكره مصاحبته .. ولو سار به في طريق شائكة مضطربة . فرفيقه سعيد ـ جد سعيد . لان زاده متوفر ، وطريقه أمين ، وخاتمته مضمونة .

والكاتب الموهوب يقتنص القارىء من وقته المكتظ. ويفرض عليه نفسه ، وتفكيره ، وآراءه ، ونظرياته ، صائبة كانت أم خاطئة ، واقعية أم خيالية .

آمنت بالعبقرية : عبقرية الادب والعلم . عبقرية الكلمة والمعنى . عبقرية الخيال السابح الوضيء والفكرة القوية الغنية ـ تجعل « الحرف » الاسود ومضة من نور ، يشرق منه الفكر ، ويشع المعنى . ويرسم للحياة خطا طويلا عريضا .

آمنت بالعبقرية : تورق الصخر وتنطق الزهر . تخلق من اللاشيء شيئا ، ومن العدم وجودا ..

آمنت بعبقرية القلم وما فيه من رقة وترف وحساسية ، وعناد ونزق وجموح . يقتنص الفكرة من مكمنها ـ يرسمها على قرطاس وينعشها في أذهان الناس.

وأي فكرة عصية لا تخضع لسلطان « القلم » ولا

يجرفها هذا « السبيل » الذي يندفع منه ـ ثم يجمدها في « حروف » ساكنة ، تصبح اسيرتها .. الى الابد ؟

آمنت بالقلم ـ الذي يجعل الاديب صاحب رسالة. ورسالته هي الحق والخير والجمال . يقتبس منها ، ويدافع عنها . ويعمل على السمو بها ، ورفع مستواها .

وليس صاحب كل اسلوب أديبا . ولا كل ذي ديباجة أنيقة مشرقة صاحب رسالة . فالرسالة وقف على صاحبها ـ لا تتعداه ولا تتخطاه . وأما الادعياء الدخلاء فسرعان ما ينكشفون ويفشلون ..

آمنت بالقلم ـ ومن علم بالقلم .. علم الانسان ما لم يعلم » .

وآمنت برسالة الاديب وانسانيته .

آمنت به .. صاحب فكرة نقية خيرة ، وريشة ناعمة حنون ، يلونها خيال أنيق ، ويزخرفها شعور رقيق ، وتضفي عليها العاطفة غلالة مترفة ، وبردا خاليا ، ومسحة ناعمة فاغمة حالمة .

ولقد كانت مجلة « العرفان » غنية بالفكر المبتكر ، والبيان السائغ العذب ، والمواضيع الشائقة المثيرة ، والابحاث الناضجة المختلفة .

لقد كانت مجلة العالم والاديب .

كانت مدرسة طيلة نصف قرن حافل بالاحداث.. وكم خرجت خلال هذه المدة الطويلة من أدباء ، ونمت فيها عبقرية علماء ـ رغم العقبات التي اعترضت سبيلها ، والاشواك التي زرعت في دربها ؟ وقد أذكت نار الوطنية في نفوس المقيمين والمغتربين ، وكانت حلقة اتصال بين النازحين والوطن الام .

لقد كانت نافذة يطل منها كل عربي على أدب قومه وتاريخهم وأمجادهم . وكانت منبرا حرا ورسالة قومية ـ تضطلع بأعباء التثقيف والتوجيه ، والاصلاح والارشاد . ومن يتصفح أعدادها يقرأ تاريخ بلاده وامته فيهـا .

لقد كانت حديقة غناء ـ تحوي مختلف أنواع الثمار والاوراد .

وكان صاحب « العرفان » خير من يرعى هذه الحديقة بعنايته ، ويصونها برعايته ، ويتعهد الزهرات الناشئة فيسقيها من قلبه ، وروحه ، وجبينه ـ حتى يسطع طيبها ، ويفوح عبيرها ، ويعبق أريجها ، ويفوح شذاها . وما أكثر من تتلمذ على « العرفان » وأفاد منها وانتفع بها .

كان صاحب العرفان فتى الهمة في شيخوخته ـ مثله في صباه .

كان ذا حركة دائبة ونشاط مستمر لا تثنيه النائبات ، ولا تضعفه الحادثات ، ولا ترهبه الملمات ، ولا تقعده المثبطات .

كان ذا عقيدة ثابتة وطيدة ـ كم أغري حتى ينحرف عنها أو يتنصل منها ، أو يسير في الطريق التي سار عليها الآخرون .. فكان يهزأ بالاغراء ويسخر من المغرين . وظل يغذ السير في طريقه القويمة ـ لا يوقفه ترغيب ، ولا يثنيه ترهيب . يعرض عن كل عرض مغر ، ويصدق عن كل محاولة دائبة ـ بكل ما في نفسه من أنفة وحمية ، وترفع واباء .

وكان جهاده متصل الحلقات من العهد التركي الى العهد الفرنسي . وقد حارب العهدين ، ورجالهما ، بكل ما أوتي من قوة وشجاعة . لقد كان خصما « عنيدا » للاستعمار ـ لم يهادنه ، ولم يسالمه .. لم تلن له في محاربته قناة ، ولم تضعف له عزيمة او تلن شكيمة وظل في مكان فوق أريكة النزاهة ، والوطنية ، والعلم .. صامدا ، متحديا ، شامخا كالطود ، كالهرم ، كالصخرة السامقة ، والنخلة الباسقة ـ لها على الناس فضل الثمر ، ومنة الفيء .

وكم أوذي في سبيل كلمته وعقيدته . وكم تعرض لمثل ما يتعرض له رجل عقيدة ومبدأ . وكم حورب واضطهد ، وسجن وأبعد ـ كل ذلك في سبيل فكرة يؤمن بها ، ورسالة يدافع عنها ، ووطنية صادقة مخلصة لا مجال للشك بها ، أو النيل من قدسيتها ونزاهتها .

وصاحب العقيدة الحقة .. لا يزيده الضغط الا تشبثا وثباتا ، وحماسة واصرارا .

ولم يعرفه أحد متوانيا في الليالي السود ، ولا

متبجحا أو متعاليا في الأيام البيض •

كانت حاله واحدة •• لا تتغير بتغير الاحوال ، ولا تتبدل بتبدل الظروف •

« كان من نفسه الكبيرة في جيش

ومـن كبريـــاه في ســــلطان »

وتذل الرسالة وتهان ، وتجرح الوطنية وتمتهن ـ اذا ساوم صاحبها عليها ، ونزل بها الى أقل من مستواها، وجعلها سلعة للبيع ، أو مطية للطمع والاغراء •

ولن تضعف « الرسالة » وتفشل ، الا اذا استهان بها حاملها ، وعرضها للنيل والتجريح •

وما أعظم صاحب الرسالة الذي يصبر على الاذى، ويتحمل الضيم • وما أحراه بالمجد والخلود • انه يدخل التاريخ من بابه الواسع العريض •

وطوف الشيخ عـارف الزين في أنحاء الدنيـا ـ يحمل رسالته في قلبه وعلى كاهله ولسانه ـ رسالة العلم، والعروبة ، والعرفان ، يبشر بها ، ويدعو لها •

ولم أره مرة في سمته الرصين ، ومظهره الرزين، وعمته التي تضفي على وجهه مهابة ووقارا ـ الا ذكرت قول « بدوي الجبل » :

لاث العمامة للجلى • ولست أرى

الا العمائـم في الاسـلام تيجانـا

وقول « جورج صيدح » :

تاج «العروبة» فوق مفرقه استوى

حينـا ، وتاج العبقرية حينا

حسـدت لآلئـه ضيـاء جبينه

سبحان من صـاغ الضيـاء جبينا

وكان الشيخ عـارف الزين من الرواد الذين انطلقوا من لبنان يجوبون الآفـاق البعيـدة ، والاقطـار القريبة ـ مبشرين ، وهادين ، وداعين للحق والخير •

ولبنان درة في جبين العـالم العـربي ، وجوهرة مشعة فريدة ـ تشرق في سمائه ، وتسطع في صحرائه • ونسمة عليلة بليلة ، تهب مـن أرزه الخالـد ، لتنعش الدنيا العربية ، وتنشر فيها خميلة ممرعة ، وجنة رائعة ، وظلا أليفا •

كأنه في حقيقته وواقعه •• أسطورة أبدية ، وخيال مجنـح •

وكم من علينا لبنان ـ كما من الله عليه ـ بادباء موهوبـين ، وعباقرة خالدين ـ كانـوا تراثا للعروبة ، ومفخرة لابنائها الميامين •

وقد أحبت دمشق الشيخ عارف الزين ، وآثرته • وكان له فيها مقام مرموق ، ومنزلة رفيعة • وذكرت له أياديه ، وشكرت له مواقفه ، وعرفت قدره ، وتتبعت أثره • وأكبرت علمه وفضله ، وجهاده الصادق الصامت•

وما عقت دمشق جهاد مجاهد ، ولا نضال مناضل، ولا عاطفة مخلص •

ولم تكن حسرة لبنان على فقيده ، بأعظم من حسرة الجمهورية العربية المتحدة على فقيدها •

والشيخ عارف الزين فقيد العلم والادب والوطنية ـ لا في لبنان فحسب ، وانما في كل بلد عربي ، مؤمن بعروبته وقوميته •

« يدك البيضـاء لا تنكرهـا

سـود الله وجوه المنكرين »

ويوم نعـاه الناعي في لبنان ، أدرك أبنـاء العروبة الغيارى : ان العروبة قـد فقـدت ركنا ركينا ، وحصنا حصينا ، ودعامـة متينة ، ورجلا ـ كان وحـده قبيلة ، وجيشا ، وقطعة منيعة • وما أندر الرجال :

« هكـذا هكـذا ـ والا فلا لا

ليس كل الرجال تدعى رجالا »

وتوفي الشيخ عارف الزين ـ عن أبناء كرام بررة، وسمعة نقيـة عاطرة ، وماض طويل عريض ، وتاريخ مشرف حافل ، واسـم مدو عاطر ، وذكريـات ناضرة خالدة ، ومجد أدبي مؤثل ، وثروة علمية لا تفنى • ومجلـة كـانت ـ ومـا زالت ـ مدرسـة ، ومنبـرا ، وتاريخا ••

ولن ينسى الشيخ عارف الزين مـا دام في الناس من يذكر الفضل ، ولا ينكر الجميل •

عبد اللطيف اليونس